شخصية الحلاج الصوفية

أ/ شكار ميلود
قسم الفلسفة
جامعة الجزائر

ملخص:

إن الشائع عن التصوف أنه يمثل موقفا سلبيا من الواقع المعيش لأن بعض المتصوفة اتخذوا مواقف استسلام وانزواء فهرعوا إلى أنفسهم فأخذوها بمختلف الرياضات والمجاهدات الروحية والبدنية الأمر الذي أعطى التصور السائد عند أغلبية الناس المتمثل في سلبية الظاهرة (التصوف).

إن هذا الأمر يصدق على فئة اختارت الاعتناء بالأخلاق الفردية واهتمت بتنمية الجانب الروحي في الإنسان فلم يتعد دورها النصح والوعظ والإرشاد أما الفئة الأخرى لم يمنعها تصوفها من إبداء رأيها في نظام الحكم وانتقاد الحكام والولاة ومن بينهم شخصية الحلاج (موضوع بحثنا) التي كانت ضحية آرائها.

Résumé:

Ce qui est traditionnellement perçu dans le soufisme c'est qu'il représente une position négative par rapport au vécu réel, parce que certains soufistes ont pris des positions de rédition et d'enfermement sur soi et ils se sont intéresses qu'à ce qui est exercice de l'âme, ce qui donne l'impression chez le commun des hommes, que ce phénomène le « Soufisme » était « négatif ».

Cette (impression) vision est justifiée chez une partie, qui a choisi de prendre soin des mœurs personnels et de ne s'occuper que de l'enrichissement de l'aspect spirituel de l'être humain, et son rôle n'a pas dépassé le prêche de la bonne parole et le conseil de la bonne conduite. A l'opposé ou a l'autre partie, celle qui n'a pas été empêchée par les convictions soufistes de donner des opinions sur le pouvoir et de critiquer des détenteurs de ce dernier, c'est l'exemple d'AL HALLAG. Qui est le sujet de notre exposé.

المبحث الأول: مذهبه الصوفي

اختلطت في حياة " الحلاج "، وفي مسيرته المأسوية، الجوانب الصوفية بالجوانب السياسية والاجتماعية، فكانت صوفيته فريدة من نوعها، لأنه اختار الطريق الذي يحقق به الفناء، وكان يدرك إدراكا تاما أنه يختلف عن سواه من المتصوفة، الذين عرفوا التعايش والألفة مع مذهب الفقه والدين ولم يرتفعوا باللغة إلى مرحلة الكشف، وكان يردد وكأنه يتحدث عن نفسه " الصوفي وحداني الذات لا يقبله أحد، ولا يقبل أحدا ". (عزيز جاسم، 1966)

وهذا الاختلاف نجده كذلك في مذهبه الصوفي، " فالحلاج " لم يعتنق فكرة واحدة أو مذهبا واحدا، بل كانت له آراء مختلفة شملت كلّ المذاهب المعروفة في التصوّف، نجد له أقوالا في الحب الإلهي، وفي عقيدة الحلول و الاتحاد، ووحدة الوجود والفناء وفي التنزيه، كما يقول بالحقيقة المحمدية، وبالجبر، ووحدة الأديان، وآراء في وصف نظرته إلى إبليس، ليختم مذهبه بآراء في الشوق للقاء الله، فمذهبه الصوفي يعبر عن كل هذه الأفكار.

1/- الحب الإلهي: تعود أصوله إلى عمق الإسلام، فلقد جاء في القرآن: " فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ (سورة المائدة الآية 54). ولكن لم يهتم المسلمون بهذه الفكرة (الحب الإلهي) إلا بعد أن ظهر التصوّف وتطور في عصر " رابعة العدوية التي اشتهر تصوفها بالتركيز على فكرة الحبّ الإلهي، ولكن دون أن تصل بها إلى حدّ المذهب، والسبب هو اهتمامها بالناحية العملية على حساب الناحية النظرية، ثم عند الحارث المحاسبي، وعند ذي النون المصري (ت 245هـ).

غير أنّ " الحلاج " وإن كان لم يبتدع نظرية الحبّ الإلهي، إلاّ أنّ هذه الفكرة تطورت على يده تطورا ملحوظا يفوق ما كانت عليه عند " رابعة العدوية "، وذلك عن طريق إعطائه إياها بعدا عميقا، ليصبح بعد ذلك أول من نظر إلى الحب الإلهي بعمق، فهو يرى أن الحبّ -دون العلم- هو طريق المعرفة، ذلك لأنّ خضوع القلب للأمر الإلهي في كل لحظة بفعل المحبة أجدى في الوصال من المعرفة الفكرية، حتى أنّ العبد يكون أقرب إلى الله بفعل الحبّ أكثر من قربه بفعل الفعل. (طه عبد الباقي سرور،

1961) ويرى "الحلاج" إن أساس المحبة هو التضحية، إأنّ المحب يحب أن يشقى من أجل محبوبه(طه عبد الباقي سرور، 1961)، وهذا ما عبّر عنه بشعره :

فكيف أصنع في حبّ كلفت بــــه — مولاي، قد ملّ من سقمي أطبائي
حبــّي لمولاي أضناني وأسقمني — فكيف أشكو إلى مــولاي مولائي
إنــي، لأرمقــه والقلب يعرفـــه — فما يترجم عند غيــــر إيمانـــي
ياويح روحي من روحي فوا أسفي — عليّ مني فإني أصِـــلُ بلـــوائي

2/- **الفنـــــاء** : هو من أهم المراتب الصوفية التي مرّ بها " الحـــلاج "، والفناء يمثل خلاص الإنسان من نزعاته وأهوائه، وإراداتـــه الخاصـــة، فيكون كل فكر لله وبالله، ويصبح صاحب الفناء لا يرى في الوجـــود إلاّ الله، والفناء عند " الحلاج " يتم بإرادتها لكن إذا وصل إلى درجة الفنـــاء يصبح لا يملك لا نفسه ولا إرادته، وينجم عن هذا حال لا يطاق، نظـــرا لاختلاف طبيعة العبودية، وطبيعة الألوهية، إذ يقول " الحلاج " : " يا أهل الإسلام، أغيثوني، فليس يتركني ونفسي، فآنس بها وليس يأخـــذني مـــن نفسي، فأستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه (السامي علـــي بـــن انجـــب، 1936)

ويرى الحلاج أنّ الفناء يحصل بعد الدنوّ من الله والاستغراق في الوجـــد، ولقد عبّر عن رأيه هذا بقوله :

أدنيتني منـــك حتـــى — ظننت أنـــك أنـــي
وغبت في الوجد حتى — أفنيتني بك عنـــــي

لهذا وجد " الحلاج " مخالفة كبيرة لآرائه، ولهذا يرى أن فناءه في الله رفع عنه كلّ صفاته وأصبح يتصف بصفات الله، وانطلاقا مـــن هـــذا أنكر الناس عليه وشهدوا بكفره وسعوا إلى قتله، ورغم كون " الحـــلاج " أنه يقيم لهم الأعذار إلاّ أنه كان يريد أن يتخلص من هذه الدرجة العليا من الفناء عن طريق الدّعاء، فيقول : "... يا من لا تأخذه سنة ولا نـــوم، رد إليّ نفسي لئلاّ يفتتن بي عبادك (الحلاج، 1913).

3/- الحلول ووحدة الوجود : وردت عنه آثار تفيد امتزاج روح الله بالمخلوق، وهذا ما يعرف بالحلول، ويبدو أنّ " الحلاج " قد تأثر بالفكر الشيعي، ذلك لأنّ أصل الحلول عند المسلمين، إنما بدأ عند بعض الشيعة الغلاة، الذين اعتقدوا بأن روح الله حلّت في آدم ثم صارت إلى الأنبياء والأئمة في أزمانهم إلى أن انتهت إلى عليّ وأولاده.

كما ظهرت على لسان " الحلاج " عبارات تفيد، أن لا يوجد في الكون خالق ومخلوق وإنّما الكلّ واحد، وهذا ما يعرف بوحدة الوجود أو نفي الإثنين، ويعود أصل هذه النظرية إلى الحضارة الهندية. ومن هذا المنطلق قال بعضهم بأنّ " الحلاج " يقول بثنائية الطبيعة الإلهية، ومن شعره المشهور في الحلول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا — نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته — وإذا أبصرته أبصرتنا

قال أيضا:

مزجت روحك في روحي كما — تمزج الخمرة بماء الزلال

فإذا مسك شيء مستني — فإذا أنت أنا في كل حال

وظاهر هذه الأشعار -على حسب دلالة الألفاظ اللغوية- يفيد الحلول الصريح، وعملية الحلول حسب " الحلاج " تتم بعد عملية تهذيب الجسد بالطاعة، وإشغال القلب بالأعمال الصالحة، وملك النفس عن الشهوات، ورياضة النفس تنتهي في الأخير بحلول روح الله لتعوض الروح الإنسانية التي فنيت بالمجاهدة والرياضة.

ولقد ثار حول هذه النظرية في الحلول جدل كبير، فذهب الكثير إلى إعتبار هذه النظرية من هذه المقولات واعتبروها من قبيل الشطحات التي تحتمل المعنى الحسن، كما تحتمل معنى القبح العقيدي.(محمد عبد القادر، 1966)

4/- التنزيه : يرى " الحلاج " أنّ الذات العليا لا تمتزج بالخلق، كما أنّ الخلق لا يمتزج بها لأنّ الذات الإلهية بألوهيتها وربوبيتها تتميز عن الخلق المحدث بالقِدَم، الذي اعتبره " الحلاج " علّة المباينة(السامي علي بن انجب، 1936). لذا ذهب إلى تكفير من يقول بأنّ الذات الإلهية تمتزج

بالذات البشرية، فيقول : " من ظنّ أن الإلهية تمتزج بالبشرية، أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر، لأنّ الله تعالى تفرّد بذاته وصفاته، عن ذوات الخلق وصفاتهم (السامي علي بن انجب، 1936)

ويرى " الحلاج " بأنّ القول بوجود الله في مكان، أو على مكان، أو متصل بمكان، فهو من قبيل الشرك، كما يصف بالشرك كل " من زعم بأن الله يدخل تحت الصفة والنّعت، فإن وصف الله يدخل تحت الصفة والنّعت، فإن وصف الله لا صفة له. وانطلاقا من هذه الآراء ذهب بعضهم إلى القول بأنّ الحلاج كان يتبع منهج المعتزلة في تنزيه الله "آدم متز، 1957"، بدليل قول : " ومن زعم أن البارئ في مكان أو على مكان، أو متصل بمكان، أو يتصور على الضمير، أو يتحايل في الوهام، أو يدخل تحت الصفة، أو النعت فقد أشرك (السامي علي بن انجب، 1936).

لكن وردت أخبار عن " الحلاج " تفيد أنه خرج عن منهج المعتزلة، فلقد أكد " الحلاج " حينما صدر في حقه قرار القتل، بأنّه على عقيدة أهل السنة، وهذا ما يبرز لنا أن " الحلاج " كان على عقيدة أهل السنة قبل ذلك (آدم متز، 1957) وهذا من خلال قوله بإثبات صفة القدم والبقاء، ويعتبر تأكيدهما إثباتا للتوحيد، لقوله : " إنّ صفات البشرية هي الحجة على ثبوت صفات الصمدية، وصفات الصمدية لسان الإشارة إلى فناء صفات البشرية، وهما طريقان إلى معرفة الأصل الذي هو قوام التوحيد"السامي علي بن انجب، 1936"." فالحلاج " إذن يبني عقيدة التنزيه على إثبات الصفة من غير تعطيل ولا تسبيه مثبتا في ذلك اتجاهه السنّي في العقيدة.

وتجدر الإشارة هنا إلى التناقض الذي ورد في أفكار " الحلاج "، فنجده في التنزيه يقول : " إن العبودية مستهلكة في الألوهية من غير ممازجة ومن جهة أخرى نجده في الحلول يقول بامتزاج روح الله بالمخلوق، فهذا التناقض سببه فناء " الحلاج " عن نفسه، وفنائه عن فنائه فبات لا يشعر بنفسه في تلك الحال، ولا يشعر حتى بعدم شعوره، وهذا من فرط المحبّة وشدة الوجد (محمد جلال شرف، 1969)

5/- الحقيقة المحمدية : يؤمن " الحلاج " بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء وأنّ الحجّة الإلهية قد اكتملت به

على جميع الخلق، ويرى بأنه : " ما كان في الآفاق ووراء الآفاق، ودون الآفاق، أظرف، وأشرف، وأعرف وأنصف، وأرأف وأخوف، وأعطف من صاحب هذه القضية، وهو سيد البشرية الذي إسمه أحمد".(الحلاج، 1913)،فالنظرية الحلاجية في النور المحمدي تقوم في الأساس على اعتبار أن محمدا له صورتان : صورة نورانية قديمة كانت قبل أن تكون الأكوان، وصورة تتمثل في النبي المرسل، وهذه الصورة محدثة تعين وجودها في زمان و مكان محدّدين. ولهذا يعتبر " الحلاج " في رأي (سرورعبد الباقي) أنه أوّل من اجتاز حبّ الذات الإلهية إلى نور المحمدي في تاريخ التصوّف الإسلامي.(طه عبد الباقي سرور،1961)

6/- الجبر ووحدة الأديان : هما من أهمّ العقائد التي قررّها " الحلاج " من خلال ما وصلنا من أخبار، فهي عقيدة الجبر المطلق الناجم عن الإرادة الإلهية التي تملك فعل الإنسان، فيرى " الحلاج " أن الله هو الذي وحد نفسه على لسان من شاء من عباده. (السامي علي بن أنجب،1936) و انطلاقا من هذا اعتبر " الحلاج " الكفر والإيمان يفترقان من حيث الإسم فقط وأمّا من حيث الحقيقة، فلا فرق بينهما(السامي علي بن أنجب،1936). ويرى أن التفريق بينهما يعتبر كفرا، فقد ورد في كتاب أخبار الحلاج الذي حققه(Massignon Luis) و(Krawes) أنه قال : كفرت بدين الله والكفر واجب لديّ وعند المسلمين قبيح (السامي علي بن أنجب،1936).

وأبرز ما نجم عن عقيدة الجبر عند " الحلاج "، قوله بوحدة الأديان، رغم أنها لم ترد بكثرة كما هو شأن الآراء الأخرى، فوحدة الأديان عند " الحلاج " برزت حينما لام رجلا خاصم يهوديا وقال له : يا كلب، فقال " الحلاج " : " يابني، الأديان كلها له عزّ وجل، شغل بكل دين طائفة لإختيار عليهم، فمن لام أحدًا ببطلان ما هو عليه، فقد حكم أنه اختار ذلك لنفسه، وهذا مذهب القدرية، والقدرية مجوس هذه الأمة، وأعلم أنّ اليهودية والنصرانية، والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسام متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف (السامي علي بن أنجب،1936).

7/- **نظرة الحلاج إلى إبليس** : من خلال نصّ ورد في كتاب الطوسين نستخلص نظرة " الحلاج " إلى إبليس، وهي نظرة مخالفة ربما لنظرة جميع المسلمين، فلقد جعل منه عارفا بالله ولم يكن يوجد في أهل السماء موحد مثله ، كما يراه عابدا لله، على الحقيقة أنه تخلص من كل حظوظ نفسه، وتجرّد لعبادة الله وحده ".(الحلاج، 1913)، ويرى الحلاج " أن إبليس يقول بالجبر.فلا بد من الرّجوع إلى النّار التي هي أصله، باعتبار أن الفرع يرجع إلى الأصل، وكلّ هذا بتقدير الله وحده، ويرى الحلاج أنّ إبليس ترك السجود لآدم، ليس عصيانا للأمر الإلهي، وإنما كان الأمر إبتلاء، وفي هذا يقول إبليس حسب تصورّ الحلاج- (... إن عذبني بناره أبد الأبد، ما سجدت لأحد، ولا أذل لشخص وجسد، ولا أعرف ضجا ولا ولدا، دعواي دعوى الصّادقين، وإني في الحبّ من الصادقين).(الحلاج، 1913)

8/- **خلاصة من الجسم** : لقد بلغ الحلاج درجة كبيرة من المعرفة بالله، وصلت به إلى الشوق الذي لا يرحم، ولا صبر معه في وصال الله، من أجل ذلك إعتبر" الحلاج " حياته سجنا إذ قال :

فها أنا في حبس الحياة ممنع عن الإنس فأقبضني إليك من الحبس

(السامي علي بن أنجب،1936).

فكان الحلاج يطلب من الناس قتله، حتى يرتاح من ذلك السجن، وتتم له الحياة الحقيقية وفي هذا يقول :

أقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي.

ومن أجل الخلاص من الدّنيا التي اعتبرها " الحلاج " سجنا يحول بينه، وبين وصل الله، أخذ يستفز النّاس بأقوال تخالف الشريعة، حتى يقدموا على قتله بتهمة الزندقة فلقد قال :

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبت البحر وانكسرت السفينة
ففي دين الصليب يكون موتي ولا البطاحا أريد ولا المدينة

لقد كنت أراء " الحلاج " متنوعة فيما يتعلق بالعقيدة والتصوّف، ولقد انتهى إلى نتائج متناقضة في الظاهر نظرا إلى البواعث المختلفة التي

كان يتكلّم بمقتضاها، فلقد قرّر عقيدة التّوحيد بطريقة عقلية علمية على مذهب أهل السنّة، وفي الوقت نفسه صدرت منه أقوال تفيد الحلول ووحدة الوجود، وهي تخالف عقيدة التنزيه عند أهل السنّة في الصميم، ويعود هذا إلى فرط المحبّة، والسكر الناجم عن الفناء، وبهذا أوّل (أبو حامد الغزالي) أقوال " الحلاج " التي توهم الحلول، ووحدة الوجود، فلقد اعتبرها من قبيل الشطح الصوفي، وليس من قبيل العقائد (أبو حامد الغزالي، 1973)، خاصة وأن قرائن وردت عن الحلاج تفيد هذا الإتجاه.

كما كانت " للحلاج " آراء شذّت به عن جميع طوائف المسلمين، كرأيه في إبليس، والجبر المطلق، الذي نجم عند فكرة وحدة الأديان، كما وردت أخبار الحلاّج تفيد استفزازه للنّاس في أمور دينهم حتى يقدموا على قتله بتهمة الزندقة، ويعود السّبب في هذا إلى قوة شوقه للقاء الله تعالى، باعتبار الجسد سجنا يحول بين" الحلاج " ومذهبه الصوفي.

المبحث الثاني : حقيقة مقتل الحلاّج

في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة 309هـ، بدأ تنفيذ الحكم الصّادر ضدّ " الحلاج "، بباب خراسان، بحضرة حشد كبير من سكان بغداد ومجلس الشرطة، فضرب " الحلاّج " ألف سوط، وقطعت يداه ورجلاه وهو لا يزال حيّا،أعدم في اليوم الموالي، لأنّ أمر الخليفة تأخر في الصدور (عبد الرحمن بدوي، 1973)، فكان حكم الخليفة مستندا إلى القضاة الذين أفتوا بقتله وأباحوا دمه ، فلم يجد " الحلاج "ما يفعله غير إنشاده.

طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر بأرض مستقرا
فنلت من الزمان ونال مني ... وكان مناله حلوا ومرّا
أطلعت مطامعي فاستبدتني ... ولو أني قنعت لعشت حرّا

(الخطيب البغدادي،1931)

ولما وصل " الحلاج " إلى خشبة الصّلب، طلب من " الشبلي " أن يعطيه سجادة، فصلّى ركعتين، فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب ثم قوله تعالى :﴿ لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ﴾ وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب، ثم قوله تعالى :﴿ كل نفس ذائقة الموت ... ﴾.

فلمّا سلم دعا ربّـــه قائلا : " هؤلاء عبادك اجتمعوا لقتلي، تعصبّا لدينك، وتقربا إليك فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا، ولو سترت عنّي ما سترت عنهم لما أبتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولـــك الحمد فيما تريـــد... (السامي علي بن أنجب،1936). وبعد ما أتمّ الجلاد ما كلّف به، أنشد الحـــلاج :

ندمي غير منســـوب	**إلى شيء من الحيف**
دعاني ثم حيـــــاني	**فعل الضيف بالضيف**
فلمّا دارت الكـــــأس	**دعا بالنطح و السيف**
كذا من يشرب الراح	**مع التنين في الصيف**

فبقي الحلاج مصلوبا ثلاثة أيام، مقطوع اليدين والرجلين، حتـــى قدم " حامد " إلى الخشبة، وقرأ على الجميع أمر الخليفة بقتل الحلاج، بناء على فتوى الفقهاء التي تنص على أنّ في قتـــل " الحلاج " صلاح أمـــر المسلمين، وعقب ذلك أمر حامد الجلاد بقطع رأس " الحـــــلاج " (طـــه عبد الباقي سرور،1961)، ثم أحرق بالنار، وحمـــل رمـــاده إلـــى رأس المنارة لتنسفه الريـــح.

أ/- محاكمة الحلاج :

صرح الحلاج بعد عودته من الحجة الأخيرة، برغبته في الموت، فقد أراد أن يموت كافرا بشريعة الإسلام، فأقام في بيته كعبة مصغّرة وفي الليل كان، يصلي عند القبور، أمّا في النهار فكان يجوب شوارع بغـــداد، ويصيح في أسواقها طالب من أهل الإسلام إغاثته بقتله، وخلاصـــه مـــن نفسه التي أتعبته كثيرا، ثم أراد دعوة المؤمنين إلى القضاء علـــى هـــذا العار، عار إنسان يجرؤ على القول بأنه اتحد بالله، فصاح بهم في جـــامع المنصور : " إعلموا أنّ الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني، أقتلوني تؤجروا وأستريح ... ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلـــي (عبد الرحمن بدوي،1973)، فأثارت هذه الأقوال شعور العامة، وبلبلت أفكار النـــاس، وجعلتهم يجدون صعوبة في الحكم على " الحلاج ".

لكن السّلطة كانت متأكدة من الخطورة التي يـــشكلها " الحـــلاج " على وجودها خاصة، عندما أخذ يتصل بالناس، ويوثق صلته بطوائف من الجند، وبعض القادة والأمراء وأبنا الأغنياء، بكيفية لـــم تـــرض عنهـــا الخلافة، التي رأت أنّ في رأس " الحلاج " أهوا متعدّدة، وأنه يحـــاول أن

يجعل نفسه مصلحا دينيا، واجتماعيا وسياسيا، وأنه يلتمس طريقة إلى أمر عظيم، وإذا ما علمنا أن المهيمنين على السلطة لم يكونوا على استعداد عقلي ونفسي لأن يسلموا للحلاج بمنهجه الإصلاحي، فاعتبروا مجيئه إنما ليزلزل نظاما، ويثير انقساما في المجتمع (طه عبد الباقي سرور،1961)، لذا فسرت السّلطة أقوال " الحلاج "، ذلك أن " علي بن عيسى " نقم على الحلاج، الاهتمام " بنصر الحاجب "، كما خاصمه بعض علماء الدين، وأخذوا ينشرون الشائعات حول عقيدته.

وسنذكر الشائعات والتهكم التي اتهم بها " الحلاج "، فأوّل هذه التهم هي مراسلات " الحلاج " السرية مع القرامطة– أعداء الخلافة العباسية – لكن هذه التهمة ردّها " ابن خلكان " باعتبار أن الثلاثة الذين ذكرهم أمام الحرمين " الجويني " ، أقدموا على قلب الدولة والتعرّض لإفسادها، وهم " الجنابي " و" ابن المقفع " ، إضافة إلى " الحلاج " لا يمكن إجتماعهم نظرا إلى الفارق الزمني بينهم، فلا يعقل الاتفاق بين " عبد الله المقفع " (ق 142هـ) و الحلاج الذي لم يولد إلا بعد حوالي قرن من وفاة " ابن المقفع "، كما كان " ابن خلكان " لا يحرم بالتقاء " الحلاج " مع " الجنابي " رغم أنهما كانا في عصر واحد. (محمد جلال شرف،1969)

والتهمة الثانية هي قول " الحلاج " : " أنا الحق " وهذه مصدرها أمثال الجنيد الذي تنبأ بصلب الحلاّج نتيجة قوله أنا الحق وفي الواقع، أن هذا الموقف من " الجنيد " لا ينسجم مع موقفه إتجاه " أبي يزيد البسطامي " الذي قال كلاما من جنس كلام الحلاج فاعتذر له، وحمل شطحاته على محامل حسنة (أبو نصرالسراج الطوسي،1960)، وكانت نظرة الحلاج إلى شعيرة الحج تمثل التهمة الكبرى، والسبب المباشر الذي أدى إلى مصرع " الحلاج "، وكانت التهمة، بعد أن وجدوا له كتابا يقول فيه إن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه، بنى في بيته بيتا لا يلحقه شيء من النجاسة، ولا يدخله، ومنع أحدا من أن يطرقه، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله طوافه حول البيت الحرام، فإذا انقضى ذلك وقضي من المناسك ما يقضي بمكة مثله فجمع ثلاثين يتيما، وأطعمهم وأحضرهم إلى ذلك البيت، وتولىّ خدمتهم بنفسه، فإذا فرغوا من أكلهم وغسل أيديهم، كسا كل واحد منهم قميصا، ودفع إليه سبعة دراهم، فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج. (الخطيب البغدادي،1931)

والغريب في الأمر أن " للحلاج " آراء من هذا النّوع في الصوم والصلاة والزكاة، ومنها أنه يرى أن الإنسان إذا صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر، أغنته عن رمضان، وإذا صلّى في ليلة واحدة ركعتين من أول الليل إلى الغداة أغنته عن الصلاة بعد ذلك، وإن تصدّق في يوم واحد لجميع ما ملكه في ذلك اليوم أغناه عن الزكاة، كما طلب " الحلاج " من المسلمين أن ترفع إليه هو الزكاة والصدقة (علي سامي النشار،1969)، ومع هذا فلا يوجد أي أثر لهذه الآراء في محاكمته رغم كونها لا تقل خطورة عن رأيه في الحج !... وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآراء الباطنية -إن صحت عند الحلاج- فهي ظاهرة مشهورة في العبادات الإسلامية عند الصوفية من قبل، أمثال " أبو سعيد الحرّاز " بوصفه لأدب الصلاة بطريقة باطنية تكاد تخرجها عن طبيعتها، كما اشتهر " الجنيد " بهذا في باب الحج (محمد جلال شرف،1969)، أما الاتجاهات المستمدة من شطحات " الحلاج " وأقواله الشعرين، فهي لم تكن من خصوصيات القضاء حينذاك، بدليل أن صوفية، آخرين، " كالبسطامي " و" الشبلي " و" ذو النون المصري"، لم تعرضهم شطحاتهم وأقوالهم إلى العقوبات، فكيف الأمر، وعقوبة " الحلاج " كانت القتل ؟!.

ويلوح أن الحلاّج كتب " طاسين الأزل " بمناسبة دعاية كانت تسري في القصر منذ (306 هـ) التي صدرت من أحد غلاة الشيعة وهو " الشملغاني " الذي أتى إلى بغداد بصحبة عامل واسط " حامد بن عباس " الذي كان يستشيره في كل ما يهمّه من أمور، على الرغم من أن حامدا كان سنيا(عبد الرحمن بدوي،1973) ، ويظهر أن " الشلمغاني " هو من إقترح بعض التشديدات الغربية في تعذيب " الحلاج " بعدما استشاره " حامد في إدانة " الحلاج ". ولا داعي أن نتطرق إلى أدق الأحداث، لأن أخبار مصرع الحلاّج تملأ الكتب، وربما لأن الشيء الذي يهمنا نحن ليس التاريخ للمحاكمة، بل معرفة الأسباب التي دفعت إلى تلك المأساة.

لكن يجب أن نشير إلى أن المحاكمة الكبرى أقيمت بعد أن استطاع حامد أن يجمع أدلة أخرى، وعلماء آخرون من غير الشافعية الذين تسببوا في إبطال المحاكمة الأولى.

وتعمّد الوزير عدم إحضار القاضي ابن سريج، لذا يعتبر مصرع " الحلاّج " حادثة فريدة في التاريخ الإسلامي، ذلك أنه إتهم بالزندقة، وقتل من أجلها، لكن في الواقع ما كانت تلك المحاكمة سوى ذريعة تذرّعت بها السلطة لتتخلّص من ذلك العالم الصوفي، الذي خرج عن أعراف الصوفية، وراح يدعو الناس إلى الإسلام، دعوة كهذه لا بد أن تصدم السلطة، التي كانت على بعد كبير مما كان الحلاّج يدعو الناس إليه ، ولهذا وجد الحلاّج أمامه مؤامرات السلطة ودسائسها، ولئن استطاع " الحلاّج " الخلاص من بعضها، بسبب مواقف أصحاب الضمائر الحية من أمثال القاضي" ابن سريج " إلاّ أن السلطة استطاعت أن تظفر به في المحاكمة الكبرى، وذلك بتغييب قضاة الشافعية وعلى رأسهم " بن سريج "، وكل أنصار الحلاج من العلماء والصوفية، وبضغط من حامد على الفقهاء الذين حضروا وعلى رأسهم القاضي المالكي " أبي عمر " وانتهت المحاكمة بإصدار حكم قاس في محتواه، وفي كيفية تنفيذه على شيخ تجاوز السبعين عاما، وشاب شعر رأسه ولحيته !!.

وفي الواقع ساهم موقف بعض الصوفية من الحلاّج، في إقدام السلطة على قتله إذ هم أقرب الناس إلى فهم شطحاته، ومع ذلك شهدوا ضده، ونشروا تهما أخرى كسرقة لكتاب العلوم الخاصة من عمر بن عثمان المكي، الذي قد كان يلعن الحرّج، لأنه قال بإمكانية تأليفه لمثل القرآن والتكلم به. (محمد جلال شرف،1967)

يجب الإشارة في خاتمة هذا المقال المتواضع إلى أن الحلاج يختلف عن متصوفة من كان قبله و من جاء بعده، من حيث أنه لم يلتزم الصمت و لا تروى كما فعلوا، فشغفت الجماهير الإسلامية بمواعضه و أقواله، فأثار الريبة حوله بما كان ينطق به و يعبر به عن أرائه و قناعاته و يرضى بأن يوجه إليه من عبارات التالية فيقول عنه الناس ما يختلف الفقهاء في قبوله صريحا أو مؤولا، حتى فاز عليه و كفروه في ذلك، فذهب ضحية التطرف العقلي الذي صدر عنه من جهة، و التزمت الديني الذي صدر من خصومه من جهة ثانية، فكان بذلك شهيذ التصوف، و ضحية التطرف.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

المصادر:

- الحـــلاج : كتاب الطواسين نشره لويس مايسنيون، باريـــس، ط 1، 1913.

المراجـع:

1/- أبو نصر السراج الطوسي : " اللمـــع "، تحقيق عبـــد الحليم محمود، دار الكتب الحديثـــة، مصر، دون طبعة، سنة 1960.

2/- البغدادي (أبو بكر علي المعروف بالخطيب) : " تاريخ بغداد، أو مدينة الســـلام "، القاهرة، سنـــة 1931.

3/- آدم متـــز : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري "، ترجمة محمد عبد المعادي أبو ريدة، ط 3، القاهرة، الجزء الثاني، سنـــة 1957.

4/- السامي (علي بن أنجـــب) : " أخبار الحلاج، أو مناجاة الحلاج "، تحقيق لـــويس مابيسون وبول كراوس، مطبعة القلم، 1936.

5/- الطوسي (الســـراج) : " اللمـــع "، تحقيق عبـــد الحلـــيم محمـــود، دار الكتـــب الحديثـــة (مصر)، 1960.

6/- الغزالـــي أبو حامد : " مشكاة الأنـــوار "، تحقيق أبو العلاء عفيفـــي، القـــاهرة، سنة 1973.

7/طه عبد الباقي ســـرور : " الحلاج شهيد التصوف الإسلامي "، المكتبـــة العالميـــة ومطبعتها، ط 4، القاهرة، 1961، ص 63-64.

8/- عبد الرحمان بدوي : " شخصيات قلقة في الإســـلام ".1973

9/- علي سامي النشـــار : " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام "، دار المعارف، ط 1، ج 3، سنـــة 1969.

10/- عزيـــز جاسم : " متصوفـــة بغداد ".1966

11/- محمد جلال شرف : " دراسات في التصوف الإسلامي، شخصيات ومذاهـــب (طه عبد الباقي سرور،1961)، ".1969

12/- محمد جلال شرف : " أعلام التـــصوف فـــي الإســـــلام "، دار الجامعـــات المصريـــة، د.ط، الإسكندريـــة.1967

13/- محمد عبد القـــادر : " الفلسفـــة الصوفية في الإسلام مـــصادرها ونظرياتهـــا ومكانها من الدين والحيـــاة "، ط 1، القاهـــرة، 1966.